المحاضرة الأولى:

تعريف الثقافة

مقدمة:

يعتقد كلود ليفي ستروس (C.L. Strauss) أن الإنسان كائن بيولوجي وهو في نفس الوقت فرد اجتماعي، حيث أنه من بين الاستجابات التي يقدمها للمثيرات الخارجية أو الداخلية، نجد أن بعضها يتعلق كليا بطبيعته في حين أن البعض الآخر يتعلق به بوصفه كائن اجتماعيا . لقد تفاعل الإنسان منذ وجوده مع الطبيعة سواءا أكانت طبيعته البشرية أو طبيعة العالم الخارجي، ومن خلال هذا التفاعل أصبحت سلوكاته نمطية مميزة لحالة التحضر تختلف عن السلوك الحيواني الذي ينتمي إلى حالة الطبيعة، "إن الإنسان مهما كانت ثقافته بسيطة فإنه يساعده ويراقبه في الوقت ذاته، ويتواصل مع الآخرين بواسطة اللغة، ويستطع تكوين مفاهيم ذات صبغة علمية أو دينية أو سحرية، وهكذا يمتلك الإنسان مجموعة من الخبرات المادية ويعيش داخل تنظيم اجتماعية ويتواصل بواسطة اللغة، ويستمد تعقلات أفعاله من تنظيم القيم الروحية، وهي المجموعات الأربع الأساسية التي تندرج فيها كل الفتوحات الثقافية للإنسان" ، ثم إن الإنسان ينظم ثقافته تنظيما معينا حسب ظروف بعينها وهذا التنظيم هو ما يطلق عليه اسم الحضارة.

إن الطبيعة البشرية واحدة لكن طرق إشباع الحاجات والوسائل المستخدمة في ذلك وصور تنظيم الجماعة لنفسها قد تتشابه وقد تختلف.

1- الثقافة كاصطلاح:

يعتبر مصلح الثقافة Culture حديث العهد نسبيا على الرغم من استخدامه في اللغة العربية واللغات الأوروبية منذ القديم، لكنه اتخذ معنى محددا على أيدي علماء الاجتماع المعروفين بالأنثروبولوجيين (الثقافيين) الذين استبعدوا بعض معاني هذا اللفظ، كالتثقيف والتهذيب والتربية والزراعة، وأصبحوا يستخدمونه كاصطلاح "للدلالة على كل ما صنعه أي شعب من الشعوب أو أوجده لنفسه من مصنوعات يدوية، ومحرمات، ونظم اجتماعية سائدة، وأدوات ومعاول، وأسلوب للتعبد، وباختصار كل ما صنعه الإنسان أينما وجد". إن الثقافة في المفهوم الأنثروبولوجي هي التراث الاجتماعي أو أسلوب حياة المجتمع.

2- الفرق بين الحضارة والثقافة:

ميز بعض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بين الثقافة والحضارة تمييزا كيفيا:

فمالينوفسكي Malinowski يرى أن مصطلح "ثقافة" يستخدم أحيانا كمرادف لمصطلح حضارة، غير أنه من الأفضل استخدامها على نحو مختلف، بحيث تخصص كلمة حضارة للمظهر الخاص من الثقافة المتقدمة.

بينما يرى ثورنوالد R. Thurnwald أن الثقافة تشمل على مجموع الأشياء والعادات والأفكار التي تبدو في المجتمعات وتكون مرتبطة بها بينما الحضارة هي الكفاءات والمهارات التي تنمو من خلالها التكنولوجيا والمعرفة، وباختصار فإن الثقافة تستخدم الحضارة كوسيلة لها.

وفي علم الاجتماع الثقافي يذهب ألفرد فيبر A. Weber إلى أن الحضارة عملية قائمة على استمرار التفكير والتقدم العقلي، كما تمثل المجهود الإنساني في سبيل السيطرة على عالم الطبيعة بوسائل عقلية في ميدان العلوم والحياة العملية والتخطيط، أما الثقافة فتقابل الفلسفة والدين والفن، فالحضارة تراكمية والثقافة غير تراكمية. وتعليقا على هذا التعريف يقول بوتومور بأننا نستطيع أن نقدم تعريفين متسقين لمصطلحي الثقافة والحضارة، فالثقافة هي المظاهر الفكرية للحياة الاجتماعية، أما الحضارة فهي ذلك المركب الثقافي الذي يتشكل من خلاله السمات الثقافية الأساسية المتماثلة السائدة في عدد معين من المجتمعات .

ويعتقد (بوتومور) أن (أ. فيبر) استخدم مصطلح الحضارة للإشارة إلى المعرفة العلمية والفنية ومدى سيطرتها على الموارد الطبيعية، بينما استخدم مصطلح الثقافة للإشارة إلى النتاج الفني والديني والفلسفي للمجتمع.

غير أن رالف لنتون يرى بأن العناصر المكونة لأي ثقافة مختلفة، متباينة وأكثر ما يمكن ملاحظته هي تلك التي ترتبط بالصناعة الفنية والأدوات التي تنتجها وكانت الأنثروبولوجيا التقليدية تطلق عليها اسم "الثقافة المادية" ولكن الأنثروبولوجيا في الوقت المعاصر تميل إلى إخراج تلك الأشياء من الثقافة.

3- خصائص الثقافة:

من أهم خصائص هذه الظاهرة الاجتماعية ما يلي:

- الثقافة نتاج اجتماعي إنساني: يؤكد "رالف لنتون" أن الثقافة ظاهرة اجتماعية نفسية وليست عضوية فهي تتألف من عناصر تشترك فيها شخصيات الأفراد الذين يسهمون فيها.

- الثقافة مرتبطة بوجود الإنسان والمجتمع ويشبه "كروبر Kroeber" الثقافة والمجتمع بسطحي الورقة في تلاصقهما.

- أنها مكتسبة: فهي ليست غريزية ولا فطرية، كما أنها لا تنتقل بيولوجيا، ولكنها تتكون مما يكتسبه الفرد خلال خبرة حياته بعد الميلاد أي خلال تنشئته الاجتماعية، من خلال صلاته وعلاقاته بالآخرين.

- انتقالية وتراكمية: فهي تنتقل من جيل إلى جيل، ويتوارثها الخلف عن طريق المخلفات المادية والرموز اللغوية، كما تنتقل من وسط إلى آخر، وفي نفس الوقت فإن كل جيل يبني ثقافته على أساس ما وصل إليه الجيل السابق.

- مثالية: ينظر إلى العادات الاجتماعية التي تكون الثقافة على أنها نماذج مثالية ينبغي الاحتذاء بها والامتثال لها والتكيف معها على عكس العادات الفردية التي ليست مثالية.

- إشباعية: من خصائص الثقافة إشباعها للحاجات البيولوجية الأولية وكذلك الحاجات الثانوية المشتقة منها كذلك؛ الجوع، والعطش، والجنس، والزواج، وقد يدل هذا على وجود تشابهات ثقافية واسعة بين الثقافات.

- تكيفية: إن عملية التغير الثقافي عملية تكيفية مثال ذلك عملية التكيف مع البيئة الجغرافية في اللباس والسكن وغير ذلك، وكذلك عملية التكيف مع البيئة الاجتماعية عن طريق عملية التنظيم. أي تحدث عملية التكيف بالنسبة للمتطلبات البيولوجية والسيكولوجية للإنسان.

- تكاملية: تميل المكونات الثقافية لثقافة ما إلى الاتحاد والانسجام فتكون كلا متكاملا وهو نتيجة لعملية التكيف. فالعادات الشعبية الاجتماعية كما يرى "سمنر" تتعرض لضغوط لكي تتسق وتتكامل مع بعضها، ويعتبر التكامل الثقافي أكثر ظهورا في المجتمعات البسيطة لقلة العناصر الخارجية. والمجتمع الذي لا يتوفر على حد أدنى من التكامل الثقافي لا يكتب له البقاء.

- انتقائية: انتقال الثقافة من جيل إلى جيل لا يخضع للحتمية بل للانتقائية، لأنه يتم عن وعي وإدراك تتدخل فيه شروط وعوامل مختلفة، فالجيل الذي يتلقى عناصر الثقافة ينتقي منها البعض ويستبعد البعض الآخر تبعا للحاجة والظرف ويبقى في الأمر كثير من النسبية.

- التغير: تخضع الثقافة للتغير مثلها مثل باقي الظواهر كما قال هيراقليطس Heraclitus:"إن التغير قانون الوجود". والتغير الثقافي هو كل تغير يحدث في العناصر المادية وغير المادية للثقافة (المباني، الأثاث، الأدوات، الملابس، الآلات، والمواصلات والعادات والعرف والتقاليد والفن والعلم واللغة والأفكار والدين)

إن الفكرة العامة لمعنى الثقافة لها أشكال مختلفة في تاريخ المجتمعات البشرية من عهد اليونان والرومان، وتبلورت عند الاهتمام بأساليب الحياة المميزة لمختلف الشعوب حيث أن "بويثيوس BoethiusAnicius" الفيلسوف الروماني اشتهر بعجلة الحظ وعزاء الفلسفة) يقول: "إن عرف الأمم وقوانينها تختلف اختلافا بينا لدرجة أن السلوك الذي تعده الأمم جدير بالثناء تعده أمم أخرى مستحقا للعقاب". إن "سبنسر" أيضا كان من السباقين في استخدام كلمة الثقافة بالمعنى الأنثربولوجي فعرفها بأنها: "مجمل الإنجاز الإنساني" ،غير أن كلمة ثقافة بمعناها الاصطلاحي الغني الأنثربولوجي أرسيت دعائمها بالإنجليزية بفضل تايلور Tylor سنة 1871 الذي اقتبسها من الألمانية بعد حدوث بعض التجاذب بينها وبين كلمة حضارة. ويصف مجموعة من علماء الاجتماع (فريق تحرير موسوعة العلوم الاجتماعية) المكانة التي وصل إليها مفهوم الثقافة حوالي سنة 1930 بقولهم: "إن النظرية الأساسية التي احتلت مكان الصدارة في العلوم الاجتماعية في العقود الأولى من القرن العشرين هي نظرية الثقافة بحيث يمكن أن نقول أن هذا القرن قد شهد في نصفه الأول تمجيد الثقافة فقد بدا هذا المفهوم أكثر المفاهيم أهمية في كتابات العلماء الاجتماعيين في ذلك الوقت وخاصة الأنثربولوجيين وبدأ هؤلاء يتحدثون عن قطاعات وتفريعات لمفهوم الثقافة، مما يدل على ثراء المفهوم"

4- تعريف الثقافة:

تعتبر الثقافة مركز اهتمام الأنثربولوجيا لاسيما الأمريكية ولم يكن هناك اتفاق على ماهيتها، حيث أورد "ألفرد كروبير" و"كلايدكلاكهون" في مقاربة مئة تعريف صاغها أنثربولوجيون وفلاسفة ونقاد، تقسم التعاريف الأنثربولوجية للثقافة إلى ست مجموعات:

- تعاريف وصفية (تستند على المضمون).

- تعاريف تاريخية (تؤكد على التقليد أو التراث).
- تعاريف معيارية تؤكد على القواعد.
- تعاريف سيكولوجية (تقارب فكرة التعلم أو حل المشكلة).
- تعاريف بنائية ذات الصلة بفكر النمط.
- تعاريف وراثية (تربطها بالطبيعة الإنسانية).

1) التعريف الوصفي:

يتضمن التعريف الوصفي عنصري الثقافة المادية واللامادية وأنها تنطوي على مظاهر العادات الاجتماعية وردود أفعال الأفراد، كما تتضمن نتاج الأنشطة الإنسانية لهذهالجماعات ، ولهذا فإن "فرانز بوا Franz Boas"✹ نظر للثقافة نظرة شاملة واعترض على وضع تعريف عام لها، أو تحديد مفهوم الثقافة بوصفها شيء بدلا من اعتبارها صفة، فالأنواع أو الأشكال الثقافية في حالة تدفق مستمر وتغير مع مرور الزمن .

- فرانز بوا: "الثقافة هي كل مظاهر العادات الاجتماعية في جماعة ما، وكل ردود أفعال الفرد المتأثرة بعادات المجموعة التي يعيش فيها، وكل منتجات الأنشطة الإنسانية التي تتحدد بتلك العادات"

يجدر بالذكر أن (بواBoas) تأثر بتعريف تايلور للثقافة الذي يقتبس منه أغلب الباحثين والعلماء تعاريفهم.

تعريف تايلور (E.B. Tylor):

الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعلومات والمعتقدات والفن والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى التي يستطيع الإنسان أن يكتسبها بوصفه عضوا في المجتمع.

كما قدم كل من ويسلر Wissler و بندكت Benedict و لنتون Linton و كروبر Kroeber، وهم تلامذة "فرانز بوا" تعاريفهم متأثرين به وبأفكار تايلور.

2) التعريف التاريخي:

تعرف الثقافة بأنها "الوراثة الكلية للجنس البشري، كما تعني أيضا الصفوة المختارة من الوراثة الاجتماعية" . في هذا الإطار يعرف رالف لنتونR. Linton الثقافة بقوله: "إن الوراثة الاجتماعية هي الثقافة، فالثقافة كإصلاح عام تعني الوراثة الاجتماعية للبشرية بينما الاصطلاح النوعي (ثقافة a culture) صفة معينة من الوراثة الاجتماعية"

3) التعريف النفسي:

ويعرف الثقافة باعتبارها تركز على حل المشكلات التقليدية التي تتكون من الاستجابات التي ثبت نجاحها، ومن العمليات الفردية كالتكيف والتعلم والعادة. وغرض الثقافة وفق هذا التعريف هو إشباع حاجات الأفراد والتغلب على مشاكلهم قصد التكيف مع البيئة الخارجية ومع أفراد المجتمع.

حيث يعرفها "يوناغ 1934 " بقوله: "هذه الأساليب الشعبية folkways، الأساليب المستمرة لمعالجة المشكلات والنظم الاجتماعية نطلق عليها الثقافة، إن الثقافة تتكون من ذلك الكل من السلوك المتعلم أو نماذج سلوك أي جماعة التي تتسلمها من جماعة سابقة أو جيل سابق عليها ثم تسلمها بدورها بعد أن تضيف إليها إلى جماعات لاحقة أو جيل لاحق"

4) التعريف المعياري:

وهو نوع من التعاريف التي تهتم بالثقافة كقاعدة وطريقة وأسلوب دأب الناس عليها في أعمالهم وأفكارهم وفي حياتهم بشكل عام، ومنها ما يهتم بإبراز أهمية المثل والقيم، بوصفها تشكل أهم نماذج السلوك ومخططات الفعل ، ومن أهم التعاريف في هذا الإطار ذلك الذي قدمه "أوتوكلينبرغ O.Klenberg" الذي قال: "يمكن تعريف الثقافة بالقول أنها تقوم على قدرات وعادات مكتسبة من قبل الإنسان، من حيث هو عضو في مجتمع"

أما "كلارك ويسلر K.wissler" فعرفها كما يلي: "الثقافة هي أسلوب حياة تتبعه الجماعة أو القبيلة وهو يضم كل الإجراءات الاجتماعية المقننة...وثقافة القبيلة تتضمن مجموعة المعتقدات والإجراءات التي تتبعها القبيلة" ، وأنه يمكن النظر إلى الظواهر الثقافية على أنها "تحوي كل أنشطة الإنسان التي يكتسبها عن طريق التعلم. ولذلك يمكن تعريف الظواهر الثقافية بأنها مركبات من السلوك المكتسب من قبل الجماعات الإنسانية"

5) التعريف البنيوي: وهذا التعريف يتميز بوضوح فكرة النموذج أو التنظيم في الثقافة فبين مظاهر الثقافة المختلفة توجد علاقات تنظيمية متبادلة إضافة إلى هذا فإن التعريف البنيوي يبرز الصفة التجريدية للثقافة، وضمن هذا المعنى يعرف "دولار Dollard "الثقافة بقوله :"الثقافة اسم يطلق على العادات المجردة (عن حامليها) والمرتبطة بعضها ببعض، بجموعة اجتماعية"

وفي نفس السياق أيضا يعرف "كوتو Coutu" الثقافة بأنها:" أحد التكوينات الأكثر شمولا والتي تطلق عليه مجالات التفاعل الاجتماعي أنها أسلوب حياة شعب بأسره مثل الشعب الصيني أو شعب غرب أوربا أو الولايات المتحدة. إن الثقافة بالنسبة لشعب من الشعوب هي كالشخصية بالنسبة للفرد، وروح الجماعة ethos بالنسبة للثقافة هي كالأنا self بالنسبة للشخصية أي أنها لب كل أنواع السلوك المحتملة."

6) التعريف الوراثي:

يتناول التعريف الوراثي الإجابة عن كيفية تواجد الثقافة والعوامل المسببة لوجودها، كما يهتم بصفات الثقافة لكنه يركز على العامل الوراثي حيث يعرف"ل.ج.كارL.G. Carr" الثقافة بقوله : "هي ذلك النتاج التراكمي القابل للتحول من السلوك الماضي في جماعة أو تجمع ما"

بالإضافة إلى هذه التعاريف هناك تعاريف أخرى حاول من خلالها بعض العلماء تقديم مفهوم دقيق لماهية الثقافة منها:

ما قدمهمالينوفسكي (B. malinowski): "من الواضح أن الثقافة هي الكل المتكامل الذي يشمل فيما يشمل سلع المستهلكين، والمواثيق التي تتعاهد عليها الجماعات المختلفة، والأفكار والحرف الإنسانية، والمعتقدات والأعراف...إن الثاقفة في حقيقة الأمر هي كل ما يتعلق بعملية تنظيم بني البشر في جماعات دائمة"

5- مكونات الثقافة: يعتقد "هاري جونسون H. Jonson"أن مكونات الثقافة تتحدد فيما يلي:

1) العناصر المعرفية: لثقافة أي مجتمع مجموعة معارف تفسر العالم الطبيعي والاجتماعي لها تطبيقات عملية في حياة الإنسان الاجتماعي، تهدف إلى إيجاد التوافق بينه وبين البيئة كما تحافظ على بقاء الجماعة واستمرار أعضائها. (معرفة متعلقة بالحصول على الطعام وبناء المساكن، وطرق العمل، والحماية من الطبيعة) هذه العناصر يكتسبها الفرد من مجتمعه عن طريق التعلم.

2) المعتقدات: وهي جوانب من المعرفة لا تثبت ولا تفرض عن طريق البحث التجريبي فالإسكيمو يمارسون طقوسا بواسطة بعض الطرفين لإخراج الأرواح الشريرة من أجساد المرضى لإشفائهم.

3) القيم والمعايير: وهي كل المبادئ والأحكام والاختيارات التي اكتسبت معاني اجتماعية خاصة خلال التجربة الإنسانية، فالقيم هي موجهات للسلوك المقبول والمرفوض، ولكل مجتمع قيم مسيطرة وأخرى فرعية.

إضافة إلى ذلك يرى بعض المفكرين أن مكونات الثقافة تنقسم إلى:

- المكونات المادية: وهي كل ما يستعمله الإنسان من مسكن وملبس وأدوات.
- المكونات الفكرية: اللغة والفن والدين والعلم.
- المكونات الاجتماعية: البناء الاجتماعي وهو هيكل المجموعة الاجتماعية من الناس.